أومأ دانكن برأسه موافقًا، وسرعان ما شرعت المجموعة في رحلتها. تحركوا ببطء، وكان الجو مظلمًا والطريق وعرًا. ساروا في طريق ملتو عبر التلال، وأخيرًا شق ضوء النهار الظلام.

أمسك هوكاي بلجام الحصانين وساعد كورا وأليس على النزول. ثم أطلق سراح الحصانين، وأخبرهما أن يحافظا على سلامتهما ويأكلا جيدًا.

سأله دانكن: «ألن نحتاج إليهما مرة أخرى؟»

قال هوكاي: «انظر بنفسك، نستطيع رؤية معسكر مونتكالم من هنا.»

كانوا يقفون على تل مرتفع بمقدار ألف قدم عن المعسكر. تمكنوا من رؤية حصن فورت ويليام هنري من بعيد. وكان حول الحصن نيران أشعلها جنود مونتكالم، وخيام بيضاء، وإمدادات عسكرية. قال هوكاي: «الغابة تعج بالهنود الحمر الموالين لمونتكالم. قد يكون الأوان قد فات للذهاب إلى الحصن في أمان. سيأسروننا حتمًا.»

قالت كورا: «لكن علينا المحاولة على الأقل. يجب أن نصل إلى حصن فورت ويليام هنري.»

أومأ هوكاي قائلًا: «يمكننا استغلال الضباب ليحجبنا عن الرؤية، لكن علينا إسراع الخطى!»

تحركت المجموعة سريعًا نزولًا من فوق الجبل الذي استغرق منهم وقتًا طويلًا لتسلقه. وصلوا إلى مرج وشرعوا في رحلتهم، لكن هوكاي رأى أنهم قد يتعرضون لخطر كبير لو استمروا في السير. وفي النهاية أقنعه دانكن أنه لا بد أن يواصلوا التحرك.

قال هوكاي: «ابقوا متقاربين كي لا تضلوا الطريق وسط الضباب.»

في تلك اللحظة سمعوا صوت طلقة مدفعية عنيفة من جهة حصن فورت ويليام هنري. واهتزت الأرض تحت أقدامهم. أشار أنكس إلى الجهة القادم منها الصوت، وتحدث مع هوكاي دقيقة.

قال هوكاي: «أنكس لديه فكرة، لقد صنع المدفع الإنجليزي أخدودًا بالأرض. وهو عميق بما يكفي لنختبئ به، وسوف يقودنا مباشرة إلى الحصن. أسرعوا، انزلوا به والضباب لا يزال كثيفًا.»

ضغط دانكن على يد أليس أثناء انحنائهما وزحفهما في الممر الجديد.

أخفى الدخان المنبعث من المعركة المجموعة أثناء تحركها ببطء نحو الحصن. لكن لم يمض وقت طويل حتى تبدد الدخان. كانوا لا يزالوا يبعدون عن الأبواب الخشبية للحصن عدة ياردات، عندما انقشع الضباب وأصبحت رؤيتهم سهلة.

وبعد أن مر وقت كالدهر عليهم وصلوا في النهاية إلى البوابة الأمامية

طرقت أليس الباب: «أدخلونا! نحن أليس وكورا مونرو. أدخلونا!»

انفتح باب الحصن فاندفعوا إلى الداخل. واندفع الأب أشيب الشعر عريض المنكبين نحو ابنتيه.

قال الجنرال مونرو: «لقد وصلتما سالمتين! آه يا فتاتيّ، كم أنا سعيد لرؤيتكما!»

الفصل العاشر

اندلاع المعركة

كان جنود حصن فورت ويليام هنري جسورين، لكنهم كانوا في ورطة أيضًا؛ فجيش مونتكالم يحاصرهم من كل اتجاه: في الغابات، وحول المعسكر، وقرب النهر. كان الجنرال مونرو قد أرسل خطابًا إلى ويب وجنود حصن فورت إدوارد يطلب إرسال تعزيزات عسكرية، لكن تلك التعزيزات لم تصل بعد. خشي الجنرال من أن يكون الأسوأ قد حدث، لا سيما بعد أن علم أن القوات أُرسلت بالفعل لمواجهة مونتكالم في نفس الوقت الذي غادرت فيه كورا وأليس. كان من الممكن أن يحدث لهم أي شيء.

كان دانكن يحارب منذ أربعة أيام. والآن وقف فوق برج مراقبة بجانب البحيرة. توقف إطلاق النار مؤقتًا وكان كلا الجانبين في هدنة. نظر دانكن عبر النهر ورأى ضابطًا فرنسيًّا يقود هوكاي إلى الحصن. وكان من الواضح أن هوكاي مبتئس بعد أن قُبض عليه.

وأثناء نزول دانكن من فوق برج المراقبة، رأى كورا وأليس. بدتا سعيدتين ومستريحتين؛ أفضل حالًا كثيرًا من آخر مرة رآهما فيها!

قالت أليس: «دانكن، كنا في انتظارك! لماذا لم تأت لزيارتنا؟»

احمرت وجنتا دانكن خجلًا عندما تحدثت أليس إليه مباشرة. لم يكن رآها منذ بضعة أيام، كانت جميلة كعادتها دومًا. تلعثم في الكلام دقيقة حتى أنقذته كورا.

قالت كورا: «إنها تقصد أن تشكرك على كل ما فعلته من أجلنا، وأبونا أيضًا يود كثيرًا أن يشكرك!»

قال دانكن: «أنا في طريقي للذهاب لوالدكما، لأعرف موقعي الجديد. لكنني سعدت برؤيتكما. تبدين في حالة جيدة يا أليس.»

ثم ابتسم دانكن ولوح لهما بيديه وهو يبتعد.

كان الجنرال مونرو في انتظار دانكن عندما وصل.

قال مونرو: «آه يا دانكن، كنت على وشك استدعائك. أرى أن الفرنسيين قبضوا على المرشد. ماذا كان اسمه؟ هوكاي؟»

قال دانكن: «أجل، وقد رأيت ذلك يا سيدي.»

قال مونرو: «أعاد مونتكالم هوكاي إلينا مرة أخرى، لكنه احتفظ بالخطاب الذي كان يحمله هوكاي.»

سأل دانكن: «أي خطاب يا سيدي؟»

أجابه مونرو: «بعد أن أعادكم هوكاي إلى هنا بمهارته الشديدة، أرسلته بخطاب إلى الجنرال ويب. وكان هوكاي في طريق عودته إلينا حاملًا رد الجنرال ويب. لكن مونتكالم لديه الرد الآن، وهذا يعني أنه يعلم ماذا حدث لجنود حصن فورت إدوارد.»

قال دانكن: «نحن في ورطة يا سيدي إذا لم يحضر جنود حصن فورت إدوارد.»

وافقه مونرو قائلًا: «أجل، من المؤكد أننا في ورطة. عرض علي مونتكالم التفاوض، وسأرسلك بدلًا مني. أريد منك أن تعرف المعلومات التي لديه.»

أومأ دانكن قائلًا: «مفهوم يا سيدي، ولن أخذلك.»

تحدث دانكن والجنرال مونرو مدة طويلة عن مقابلته المرتقبة مع مونتكالم. وأخيرًا غادر دانكن الحصن.

حمل دانكن معه علمًا أبيض إشارة للسلام، حتى يمر داخل ساحة المعركة دون أن يصيبه أذى.

دخل دانكن خيمة القائد مونتكالم ورأى ماجوا يجلس هناك. أخذ نفسًا عميقًا ثم وقف شامخًا، تمامًا كما يليق بجندي.

كان مونتكالم رجلًا قويًّا ذا مظهر نبيل، وقال لدانكن: «كنت أنتظر حضور جنرال مونرو، لكن أرى أنك أيضًا ضابط.»

انحنى دانكن تحية وأوضح أن معه تصريحًا للتحدث باسم الجنرال مونرو. تحدث دانكن ومونتكالم فترة من الوقت عن المعركة.

وفي النهاية سأله الجنرال: «هل ستستسلمون؟»

أجابه دانكن: «هل وجدت جيشنا سهل الهزيمة للغاية في الخمسة أيام الماضية؟ أثق أن الاستسلام ليس ضروريًّا.»

أومأ مونتكالم برأسه لماجوا وقال: «سيحارب طويلًا وبقوة.»

ارتجف جسد دانكن حين تذكر كل ما مر به كي يصل إلى حصن فورت ويليام هنري.

وسأله مونتكالم مرة أخرى: «إذن هل ستستسلمون؟»

أجابه دانكن: «للأسف يا سيدي، لن نستسلم. وإذا لم تسلمنا الخطاب الموجه لجنرال مونرو فلن تترك لنا خيارًا آخر سوى مواصلة القتال.»

قال القائد مونتكالم: «أتفهم موقفك، لكنني أود سماع ذلك من جنرال مونرو نفسه.»

أومأ دانكن وغادر خيمة مونتكالم. شق طريقه سريعًا إلى حصن فورت ويليام هنري وهو رافع العلم الأبيض.

عندما عاد إلى الحصن، اتجه دانكن مباشرة إلى منزل الجنرال مونرو. كانت كورا وأليس هناك وسعدتا برؤيته.

قال الجنرال مونرو: «ها قد عدت يا دانكن.»

قالت كورا وهي تنهض: «تعالي يا أليس، لنذهب إلى الغرفة الأخرى.»

أومأ دانكن تحية لهما أثناء مغادرتهما الغرفة، ثم وقف عند مدخل الباب، منتظرًا أن يبدأ مونرو الحديث. وقف الجنرال وتجول في الغرفة. وعندما تحدث في النهاية، لم يسأل دانكن عن اجتماعه بمونتكالم، لكن قال بدلًا من ذلك: «إنهما فتاتان رائعتان، أعلم أنك أردت الحديث معي عنهما، والفرصة أمامك الآن.»

قال دانكن: «لكن ماذا عن رسالة مونتكالم يا سيدي؟»

رد مونرو قائلًا: «ستأتي القوات يا مونتكالم، تفاءل. لا أريد أن أعرف الآن ماذا قال ذلك الوغد. لا يزال أمامنا الوقت، جنودنا أقوياء. والآن، ماذا لديك لتقوله فيما يتعلق بابنتي؟»

تلعثم دانكن وقال: «أنا ... أنا ... يجب ...»

قاطعه مونرو قائلًا: «حسنًا، تحدث.»

قال دانكن: «يشرفني أن أطلب يد أليس للزواج يا سيدي.»

قال جنرال مونرو وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا: «أليس! ظننت أنك تود الزواج من كورا، فهي الأكبر سنًّا.»

لم ينطق دانكن بكلمة أخرى.

قال الجنرال مونرو في النهاية: «أجل، أوافق بالطبع. سأسعد بأن تكون ابنًا لي!»

ابتسم دانكن وقال: «شكرًا لك يا سيدي. هذا خبر سار بالتأكيد.»

سأله مونرو: «والآن، ماذا أخبرك مونتكالم؟»

أخبر دانكن الجنرال مونرو بكل شيء حدث في اجتماعه مع مونتكالم.

قال الجنرال مونرو: «لا يزال يرغب في مقابلتي شخصيًّا، حتى بعد أن أخبرته بأننا لن نستسلم؟»

أجابه دانكن: «أجل.»

قال الجنرال: «إذن علينا الذهاب. ابعث رسولًا يخبرهم بمجيئنا. لا بد أن نحضر معنا المزيد من الحراس، تحسبًا لأن تكون خدعة.»

قال دانكن: «عُلم يا سيدي.» ثم انطلق للتحضير لمقابلة أخرى مع مونتكالم.

سرعان ما شق دانكن والجنرال مونرو طريقهما خارج الحصن. وقرع الجنود الطبول إعلانًا عن مغادرة الجنرال، فردت عليهم طبول مونتكالم.

وفي النهاية وقف الرجلان وجهًا لوجه، وتطلع أحدهما إلى الآخر من أعلى إلى أسفل، ثم كسر مونتكالم حالة الصمت.

قال مونتكالم: «يسعدني يا جنرال مونرو أنك وافقت على مقابلتي. لسنا بحاجة إلى وجود حرس. أنت في أمان هنا. سآذن لحراسي بالانصراف إذا أذنت لحراسك بذلك.»

كان يقف خلف مونتكالم صفوف من رجال ماجوا. وأومأ الجنرال مونرو موافقة وهمس إلى دانكن، الذي استدار وقال: «أيها الحراس، انصرفوا!»

خرج الحراس سريعًا كما أمرهم دانكن، وتراجع ماجوا ورجاله أيضًا. وأشار مونرو لدانكن ليقف بجانبه.

استدار مونتكالم إلى الجنرال مونرو وقال: «لقد فعلت ما باستطاعتك من أجل بريطانيا، والآن حان وقت التفكير بعقلانية.»

لم ينطق الجنرال مونرو بكلمة واحدة، وسمح للجنرال الفرنسي بالاستطراد في حديثه: «هل تود أن ترى معسكرنا؟ لدينا الكثير من الجنود الأوفياء؟»

رفض الجنرال مونرو دعوة مونتكالم وأخبره أن الإنجليز لديهم نفس العدد من الجنود ممن لديهم الاستعداد لخوض المعركة.

قال الجنرال مونرو: «إذا نظرت تجاه نهر هادسون فسترى على الأرجح الجنرال ويب ورجاله هذا اليوم.»

ابتسم مونتكالم ابتسامة خبيثة ثم قال: «ها هو الخطاب الذي أخذناه من مرشدكم. قد ترغب في قراءته قبل أن تتخذ أي قرار.»

كتب الجنرال ويب في الخطاب أن الاستسلام هو الحل الوحيد أمامهم! وأنه لا يستطيع توفير جندي واحد لمساعدتهم، فقد قُتل الكثير من جنوده بالفعل في المعركة ضد الفرنسيين، بما في ذلك الجنود الذين أرسلهم في وقت سابق لحصن فورت ويليام هنري، وأنه إذا أرسل جنودًا آخرين لنجدة مونرو فقد يؤدي هذا إلى سقوط حصن فورت إدوارد نفسه. وبعبارة أخرى، رفض ويب طلب مونرو بصورة لائقة في الخطاب، لذا لم يبق أمامهم سوى قَبول ما يريده جنرال مونتكالم والإسراع في الاستسلام. وسيخوض الجنرال ويب المعركة من حصن فورت إدوارد بقدر ما يستطيع، أما حصن فورت ويليام هنري فقد ضاع بالفعل.

شحب وجه الجنرال مونرو وهو يهمس إلى دانكن: «لقد خاننا ويب! لن يرسل جنودًا إلينا، لم أر مثل ذلك الفعل الجبان من قبل.»

همس دانكن: «لا يزال الحصن في قبضتنا. لا يزال بمقدورنا القتال.»

قال مونرو: «أنت على حق. شكرًا لك على تذكيري بواجبي. سنقاتل حتى النهاية.»

تقدم مونتكالم نحوهما قائلًا: «قبل أن تقول أي شيء، هل من الممكن أن تسمع لشروطي أولًا؟»

صاح مونرو: «ماذا تقول؟ هل تود إخافتي بكلماتك؟ إن المعركة لن تنتهي لأنك أخذت ورقة من مرشد!»

همس دانكن إلى الجنرال مرة أخرى، فهدأ بدرجة كافية ليقول: «معذرة أيها القائد مونتكالم. أجل سنسمعك.»

قال مونتكالم: «لا بد أن يدمر الحصن وسندمره، لكننا سنؤمن لك ولجنودك رحيلًا آمنًا إلى إنجلترا. أما الخيار الوحيد الآخر فهو أن يموت كل رجالك، لأننا أشد قوة وأفضل استعدادًا لخوض معركة طويلة. هل تود رؤية القتال عند باب الحصن؟ أليس من الأفضل الاستسلام الآن بموجب هذه الشروط، وأن تعود إلى إنجلترا لتنقل ما حدث لملكك؟ إليك المعاهدة لتوقعها يا جنرال مونرو.»

نكس الجنرال رأسه والحزن يعتصر قلبه وقال: «حسنًا يا جنرال مونتكالم، سنوافق على شروطك ونسلم حصن فورت ويليام هنري.»

والتفت مونرو إلى دانكن وقال: «لم أتخيل أبدًا طيلة حياتي أن أقابل رجلًا فرنسيًّا جديرًا بالاحترام هكذا. ولم أتخيل أيضًا أن يرفض جنرال إنجليزي أن يأتي لمساعدتي.»

بتلك الكلمات الحزينة وقع مونرو على المعاهدة الموجودة أمامه ثم عاد إلى الحصن.

مكث دانكن ليستمع إلى الشروط المفصلة للمعاهدة، ثم عاد في المساء، وقد أذيع خبر أن الجنرال مونرو وقع على المعاهدة، وتحدد موعد مغادرة الحصن صباح اليوم التالي.

الفصل الحادي عشر

الوقوع في الأسر

في صباح اليوم التالي اصطف جنود حصن فورت ويليام هنري خارج أسوار الحصن ليسيروا تجاه سفنهم. كان النساء والأطفال يركضون جيئة وذهابًا، يحزمون ما يستطيعون حمله من أغراض. ووقف مونرو صامتًا بقلب منكسر.

رآه دانكن، فاتجه نحوه وقال: «كيف يمكنني المساعدة يا سيدي؟»

أجابه الجنرال قائلًا: «ابنتاي!»

سأل دانكن: «هل رتبت الأمور لهما؟»

أجاب مونرو: «اليوم أنا لست سوى جندي، وكل هؤلاء الرجال أبنائي. من الصعب عليّ أن أهتم بكورا وأليس أيضًا. هلا ساعدتهما يا دانكن؟ أعلم أنه يمكنني ائتمانك على حياتهما، لا سيما الآن بعد أن أوشكت على الزواج بأليس.»

ركض دانكن إلى المنزل فوجد كورا وأليس جاهزتين للرحيل. كانت كوار شاحبة الوجه، لكنها كبتت دموعها، أما أليس فلم تستطع ذلك.

قالت كورا: «لقد ضاع الحصن، ماذا سيحدث لكل هؤلاء الناس؟»

قال دانكن: «كورا، يجب أن تفكري في نفسك وأليس الآن. والدك سيهتم بالجنود. من فضلك، يجب أن تحافظي على سلامتك.»

جففت دموعها بمنديلها وقالت: «سنكون بخير. لن يقدم أحد على إلحاق الأذى بابنتي الجنرال. أضف إلى ذلك أن ديفيد معنا.»

استدار دانكن إلى العازف وقال: «ديفيد، سعدت برؤيتك. عليك أن تكون حذرًا للغاية، فنحن لا نزال في خطر. أستطيع سماع رجال الهيرون وهم يدقون طبول الحرب من مسافة بعيدة. فعلى الرغم من أن مونتكالم وقع المعاهدة، فماجوا ورجاله لا يزالون يصرون على القتال.»

أومأ ديفيد وقال: «سأكون على أتم استعداد. لا تقلق يا دانكن، الفتاتان في أمان معي.»

نفخ الجنود في الأبواق معلنين وقت الرحيل. وكان الحراس الفرنسيون يتخذون مواقعهم بالفعل، ورفرفت الأعلام الفرنسية فوق الحصن.

قالت كورا لأليس: «هيا بنا، لم يعد لنا مكان هنا.»

اصطفت الفتاتان وإحداهما ممسكة يد الأخرى بقوة.

كان ماجوا ورجاله مختبئين في الغابة. راقبوا الرجال والنساء أثناء خروجهم من الحصن. وفي اللحظة المناسبة، أطلق ماجوا صيحة مجلجلة وانقض عليهم. بذل جنود مونرو ما بوسعهم لصد الهجوم، لكن كان هناك الكثير من أفراد قبيلة الهيرون. تجمدت كورا وأليس مكانهما، فقد اجتاحهما الذعر حتى إنهما لم تستطيعا الحراك. وركض الجنرال مونرو بفرسه سريعًا بعيدًا عن ابنتيه ليبحث عن مونتكالم ويجبره على احترام وعده فيما يتعلق بإنهاء الحرب.

وقف ديفيد أمام الفتاتين. لم يدر ماذا ينبغي له أن يفعل، فبدأ يغني. رأى رجال ماجوا أن هذا الأمر غريب للغاية فتوقفوا فجأة.

لكن عندما رأى ماجوا أن ديفيد يحمي ابنتي مونرو، ركض نحوه.

قال بخشونة: «تعاليا معي وستنجوان بحياتكما.»

أجابته كورا: «محال!»

لم يرد ماجوا، بل أمسك أليس من ذراعها، ففقدت وعيها، وانطلق بها بعيدًا.

صاحت كورا: «كلا!» وركضت خلفه وهي تصرخ: «اتركها! اتركها!»

طاردت كورا ماجوا عبر الغابة حتى وصلوا إلى مرج يوجد به خيوله. وضع ماجوا أليس فوق حصان ثم أشار إلى كورا، فامتطت الحصان وأمسكت بشقيقتها جيدًا. أما ديفيد، الذي ركض وراء كورا كل هذه المسافة، فقد امتطى الحصان الآخر.

صاح ماجوا في ديفيد: «ماذا تفعل؟»

قال: «لن أسمح لك أن تأخذهما. إن اختطفتهما فخذني معهما.»

قال ماجوا: «هل تعي أنك بذلك أسيري؟»

أجابه: «أجل.»

أومأ ماجوا برأسه ثم قادهم إلى الغابة.

شق خمسة رجال طريقهم في أرض المعركة بينما تصاعد الدخان من أنقاض الحصن. كان مونرو ودانكن يبحثان عن أليس وكورا، وكان هناك أيضًا هوكاي ورفيقاه من الموهيكان. كان هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس يراقبون المشهد من الغابة، وحضروا حالما رأوا الدمار الذي تسبب فيه ماجوا ورجاله.

في النهاية نادى أنكس عليهم بعد أن وجد وشاح كورا. تفحص هوكاي وتشينجاتشجوك وأنكس عن كثب الجزء الذي وجد فيه أنكس الوشاح.

قال هوكاي: «مهلًا» عندما أشار تشينجاتشجوك إلى علامة على الأرض. أوضح هوكاي لمونرو ودانكن أن آثار الأقدام على الأرض تغيرت عند نقطة معينة. دلت آثار الأقدام على أن إحدى الفتاتين سُحبت على الأرض، ثم قال: «لقد وقعتا في الأسر.»

تقدم أنكس للأمام وأعطى هوكاي شيئًا، ثم قال هوكاي: «إنها صافرة العازف؛ لا بد أنه وقع في الأسر هو الآخر.»

سأله مونرو: «وماذا عن أليس؟»

أجابه هوكاي: «أنا واثق أنها معهما، حتى لو لم نجد علامات على ذلك.»

انحنى الجنرال مونرو ليتفحص آثار أقدام كورا فيما تحدث هوكاي إلى أنكس وتشينجاتشجوك. سار أنكس وتشينجاتشجوك في طريق مختلف. وبعد مرور عدة دقائق سمع هوكاي صياح تشينجاتشجوك.

قال: «لقد عثرنا على آثار أقدام أليس! لقد ركبوا خيولًا هنا؛ لا بد أنهم في طريقهم إلى معسكر ماجوا.»

خطا دانكن للأمام وقال: «انظروا هنا! إنه جزء من قلادة كانت ترتديها أليس.» ثم استدار إلى هوكاي وأردف: «يجب أن ننطلق فورًا، لا بد أن نعثر عليهم.»

قال هوكاي: «علينا أن نضع خطة الليلة. سنستريح بالقرب من الحصن، ونبدأ البحث غدًا بنشاط.»

وافقه الباقون الرأي، وشق الرجال الخمسة طريق العودة مرة أخرى، نحو الحصن المتصاعد منه الدخان.

عندما حل الليل، وقف دانكن أعلى برج مراقبة وراقب السحب وهي تمر. كانت البحيرة ساكنة، لكن هذا المنظر البديع لم يهدئ من روعه. وعثر الجنرال على منزل لم يكن مدمرًا بشدة، ورقد داخله. وفي الطابق السفلي، جلس رجلا الموهيكان يتناولان وجبة من لحم الدب.

جلس رجلا الموهيكان بآذان صاغية وأعين يقظة، لكنهما كانا أقل توترًا من دانكن. تحدثا بلغتهما، لكن دانكن فهم ماذا يقولان بعد أن سمعهما يتحدثان كثيرًا.

أراد هوكاي أن يسير إلى معسكر ماجوا عبر المياه، لكن تشينجاتشجوك رأى أن السفر برًّا سيكون أفضل حل. وسرعان ما أقنع هوكاي رفيقيه من الموهيكان بأن السفر في المياه سيكون أسرع وأكثر أمانًا، وأعدوا كل شيء لرحلة الغد. وسريعًا استغرق الرجال الأربعة في نوم عميق بجانب النيران.

الفصل الثاني عشر

المطاردة

كانت السماء لا تزال مرصعة بالنجوم عندما أيقظ هوكاي الجميع. قال: «هيا بنا، واحترسوا، لا تطئوا فوق أي شيء سوى الأحجار أو الأخشاب. هذا لن يخلف أثرًا يستطيع أحد اقتفاءه سوى الحيوانات. لا تطئوا فوق الحشائش، لأنها ستظهر آثار الأقدام.»

وعندما وصلوا إلى الشواطئ الرملية للبحيرة قال هوكاي: «علينا أن نسرع كي نسير مع المد والجزر، وهو سيمحو كل آثارنا.»

لم ينطق دانكن بكلمة واحدة أثناء تجديف هوكاي ورفيقيه في المياه، وعندما أصبحوا وسط البحيرة قال: «مع وجود الأعداء من خلفنا ومن أمامنا، لا بد أننا في خطر.»

ابتسم هوكاي وقال: «إذا سبقناهم فقد نحظى بفرصة للنجاة.»

قاد تشينجاتشجوك وأنكس الزورق عبر الجداول الصغيرة بين الجزر الصغيرة. سار الزورق في الجداول لبعض الوقت حتى رفع أنكس مجدافه وأشار تجاه الغابة.

قال دانكن: «لا أرى شيئًا!»

همس هوكاي: «دقق النظر، هناك دخان بجانب ذلك الضباب، لقد أشعل أحدهم نيرانًا.»

قال دانكن: «حسنًا، هيا بنا. ليس من المحتمل أن يكونوا كثيرين. ماذا لو كانت كورا وأليس معهم؟»

قال هوكاي: «لا نستطيع معرفة عددهم من تلك النيران المشتعلة. لا نريد أن نندفع. يمكن أن نرسو بالقارب الآن ونسلك طريقنا بين الجبال، ما رأيك يا أنكس؟»

لم يجب الموهيكان الشاب، بل غمر مجدافه في النهر. وعرف هوكاي أن هذه إجابته، فأسرعوا في التحرك نحو الشاطئ.

قال هوكاي: «انظروا هناك! هناك زورقان بالقرب من الدخان.» ثم أشار إلى الأجمة، حيث أخفى رجال الهيرون زورقين.

صاح دانكن: «لقد عثرنا عليهم!»

وعندئذ سمعوا صوت صيحة عالية، فقد رآهم أحدهم! قفز رجال الهيرون عند الشاطئ في زوارقهم وبدءوا في مطاردة دانكن والآخرين.

جدف أنكس وتشينجاتشجوك بكل قوتهما.

وقال هوكاي: «لنحافظ على المسافة التي تفصلنا عنهم؛ حينها لن يستطيعوا اللحاق بنا.»

وبمجرد أن بدءوا في الابتعاد حتى أطلق أنكس صيحة، فقد رأى زورقًا آخر يقترب منهم من الجهة الأخرى. التقط هوكاي مجدافًا وجدف به في الماء.

صاح الجنرال مونرو: «اتجه نحو الصخور، نستطيع قتالهم على اليابسة.»

كان هذا سباق سرعة: من يستطيع الوصول إلى الشاطئ أسرع؟ كان رجال الهيرون يتفوقون على هوكاي ورفاقه. وكلما اقتربوا من الشاطئ زاد أنكس وتشينجاتشجوك وهوكاي من سرعة تجديفهم في الماء. وأخيرًا اتسعت المسافة الفاصلة بين الزورقين. جدف ركاب الزورقين بكل طاقتهم للوصول إلى اليابسة.

لكن بدلًا من أن يرسو هوكاي بزورقه عند الشاطئ الجنوبي من الجزيرة، وجه الزورق بعيدًا. واستسلمت بقية الزوارق وعادت أدراجها، لكن هوكاي أصر على الاستمرار في التجديف. جدف هوكاي ورفيقاه عدة ساعات أخرى، حتى وصلوا إلى خليج بالقرب من الشاطئ الشمالي للبحيرة. وفي النهاية رسوا بالقارب عند الشاطئ، وصعد هوكاي ودانكن فوق جرف عال ليتفحصا المكان.

أشار هوكاي قائلًا: «انظر، هناك، إنه زورق. سيتعقبنا رجال الهيرون فور أن يعم الظلام. سيريدون مباغتتنا، كي يقبضوا علينا على حين غرة.»

نزل هوكاي ودانكن من فوق الجرف، وأخبر هوكاي تشينجاتشجوك وأنكس ما رآه. اتفقوا على التحرك بسرعة، فحملوا زورقهم وبدءوا في السير على امتداد طريق واسع، ثم عبروا جدول ماء ووصلوا إلى منطقة صخرية صغيرة، وعند هذه النقطة تحرك هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك بعناية إلى الخلف لترك آثار خاطئة لتعقبها.

وصلت المجموعة إلى جدول آخر صغير قادهم إلى البحيرة وركبوا في زورقهم. كانت الشجيرات الكثيفة تعلوهم، وتخبئهم عن الأنظار. جدفوا حتى رأى هوكاي أنهم أصبحوا

في أمان ليرسوا، ثم ارتاحوا حتى عم الظلام. وعندما غربت الشمس جدفوا مرة أخرى إلى الشاطئ الغربي. خبئوا الزورق عند الشاطئ وانطلقوا؛ فقد حان وقت البحث عن كورا وأليس.

الفصل الثالث عشر

مفاجأة

كانت اليابسة وعرة والغابة كثيفة، لكن هوكاي ورفيقيه عرفوا الطرق جيدًا. ركضوا في ثقة بين الأشجار، وركض من خلفهم دانكن ومونرو. أرشدتهم النجوم للاتجاه الصحيح، وواصلوا سيرهم حتى رأى هوكاي أن عليهم التوقف.

كان الندى لا يزال يكسو أوراق الشجر عندما استيقظوا وبدءوا في السير في صباح اليوم التالي. وبعد عدة أميال أبطأ هوكاي وأصبح أكثر حذرًا. ثم توقف ليدقق النظر في أشجار بعينها، ودائمًا ما كان يحرص على تفقد الجداول كي يطمئن أنها آمنة قبل أن يعبروها.

قال: «لا أرى أي أثر لهم، وهذا يجعلني أظن أننا سلكنا الطريق الخاطئ.»

قال دانكن: «يا إلهي! لقد أضعنا الكثير من الوقت. علينا أن نعود من حيث أتينا، دقق النظر أكثر.»

وأخيرًا عثر أنكس على أثر.

قال أنكس بحدة: «انظر، لقد خطت الفتاة ذات الشعر الداكن من هنا، هذه آثار أقدامها.»

قال هوكاي: «يتنقل ماجوا كما لو كان جنرالًا فرنسيًّا. إنهم يتنقلون ومعهم خيول، لا بد أنها تحمل الفتاتين. توقفوا هنا لحظة ربما لشرب الماء، لكنهم خلفوا أثرًا. الفرصة سانحة أمامنا للحاق بهم الآن.»

واصلت فرقة الإنقاذ رحلة بحثها مع ظهور بارقة أمل جديدة. وبعد أن صار لدى هوكاي أثر يتبعه، لم يكن ليسمح لنفسه بأن يفقده. دلتهم الأحجار وأغصان الأشجار الصغيرة وفروع الأشجار على الطريق.

لكن ماجوا لم يجعل اقتفاء أثره أمرًا سهلًا على هوكاي؛ فقد خلف علامات خاطئة وسلك انعطافات فجائية، وترك آثار أقدام غريبة. لكن هذا لم يخدع هوكاي وأنكس وتشينجاتشجوك، فقد تركت الخيول علامات، كانت أسهل في اقتفائها.

تركهم أنكس ليقتفي أثرًا غريبًا ووجد أن الخيول كانت تسير بطريقة عشوائية. سأل دانكن: «ماذا يعني ذلك؟»

أجابه هوكاي: «إنهم لا يزالون على قيد الحياة، لكنهم يسيرون الآن على الأقدام. نحن على مقربة من معسكرهم؛ أشعر بذلك. سمعنا أن قبيلة ماجوا حضرت إلى الوديان لاصطياد أيائل المُوظ. إنها بقعة خطيرة في ظل استمرار معارك الفرنسيين هنا. لا بد أن نعثر على الطريق الذي سلكوه.»

تفقد كل من أنكس وهوكاي وتشينجاتشجوك جانبًا صغيرًا من المرج، لكنهم لم يوفقوا في العثور على علامات تدلهم على الطريق. كانت هناك آثار أقدام تؤدي إلى جميع الاتجاهات المختلفة، لكنهم لم يستطيعوا تحديد الطريق الذي سلكه ماجوا ومن معه.

قال هوكاي: «سنبدأ من جديد من عند الجدول الصغير وندقق النظر.»

شق الرجال طريقهم ببطء إلى حيث عثروا على آثار الأقدام الأولية. ولم يتركوا ورقة شجر أو عود خشب دون أن يفحصوه جيدًا، التقطوا الأحجار ودققوا فيها النظر، لكنهم لم يستطيعوا العثور على أثر لاقتفائه.

وأخيرًا عثر أنكس على جدول صغير آخر مغطى بأوراق الأشجار، فأزاح أوراق الأشجار بعيدًا ثم أطلق صيحة سرور، فقد عثر على أثر لحذاء بدون كعب في الطين.

صاح هوكاي: «أحسنت صنعًا، إنها قدم العازف، فهي ضخمة للغاية ولا تناسب أي شخص غيره.»

وانحنى هوكاي ودقق النظر في الطين ثم أردف: «لقد أجبروه على السير أولًا بحيث يخطو الجميع في أثر قدمه.»

قال دانكن: «لكن ليس هناك علامات لكورا وأليس.»

قال هوكاي: «أجزم بأن ماجوا ورجاله يحملونهما. سنرى علامة لهما بعد عدة ياردات.»

سارت المجموعة على امتداد الجدول لنصف ميل قبل أن يصلوا إلى صخرة ضخمة تتدفق المياه من حولها. دقق أنكس النظر عند ضفاف الجدول ووجد طبقة من الطحالب مطبوعًا فوقها أثر أقدام.

مفاجأة

صاح دانكن: «لننطلق! لقد عثرنا على الطريق مرة أخرى.»

تساءل هوكاي: «لكن من أين عبروا الماء؟»

نظر دانكن حوله، فقد تعلم الكثير من الموهيكان، ثم قال: «انظر هناك؛ يبدو أنها عجلة يدوية.»

قال هوكاي: «أنت على حق!»

سار هوكاي إلى حيث أشار دانكن وتفحص العجلة اليدوية. وبالقرب منها وجد مجموعة من علامات لأحذية بدون كعب وآثار أقدام صغيرة لكورا وأليس.

قال هوكاي: «إنهما بخير، فآثار أقدامهما قوية وثابتة.»

توقفت المجموعة لنيل قسط قصير من الراحة ولتناول بعض الطعام. وزودهم مشهد غروب الشمس بالحماسة لمواصلة الرحلة. لم يرغبوا في أن يمر يوم آخر دون أن يعثروا على كورا وأليس.

كانوا شديدي القرب من معسكر الهيرون بحلول ذلك الوقت وأصبح اقتفاء آثارهم سهلًا. ولم يمر وقت طويل حتى أبطأ هوكاي السير.

قال: «بعد أن نمر بين الأشجار، سنجد أنفسنا في منطقة مفتوحة، علينا أن نكون أكثر حذرًا. سيمضي أنكس وتشينجاتشجوك على امتداد الجدول، وأنا سأقتفي آثار الأقدام. إذا حدث أي شيء فسنطلق ثلاث صيحات، كصوت الغراب.»

مضى الموهيكان الاثنان، تشينجاتشجوك وأنكس، بعيدًا، فيما سلك هوكاي ودانكن ومونرو طريقًا آخر، وعندما اقتربوا أكثر من المعسكر طلب هوكاي من مونرو ودانكن أن ينتظرا في الدغل.

وفجأة رأى دانكن شخصًا قادمًا نحوه منحنيًا على يديه وقدميه. وكاد دانكن أن يطلق صيحة الغراب، لكنه لم يرغب في أن ينفضح أمره.

تسلل هوكاي بجوار دانكن وقال: «عثرنا على معسكرهم، لكن هذا ليس من الهيرون. أعتقد أنه أحد مرشدي مونتكالم.»

قال دانكن: «إنه ليس مسلحًا، وما دام لم يناد على أصحابه فلا داعي للخوف.»

ولدهشة دانكن، تقدم هوكاي وربت على كتف الرجل.

قال هوكاي: «مرحبًا ديفيد، كيف حالك؟»

فوجئ دانكن لاكتشاف أن من ظنه من الأعداء هو صديق؛ فخرج من مخبئه وركض نحو رفيقيه، وتبعه الجنرال مونرو.

ضحك دانكن قائلًا: «لقد أعطوك ملابس غريبة، تبدو كرجل من قبيلة الهيرون تمامًا!»

وفجأة سمعوا صوت صيحات الغراب، فظنوا لحظة أن أنكس وتشينجاتشجوك في خطر، لكنهم أدركوا أنه صوت طائر حقيقي. لم يكن أحد في خطر. وسمع رجلا الموهيكان الصوت نفسه أيضًا، وشقا طريقهما إلى هوكاي ومن معه.

سأل مونرو: «ماذا عن ابنتيَّ؟»

أجابه ديفيد: «ماجوا يحتجزهما في معسكره.»

سأله هوكاي: «وأين ماجوا الآن؟»

رد ديفيد: «لقد خرج لصيد المُوظ، ومن المفترض أن يتوغل هو ورجاله أكثر في أعماق الغابة غدًا؛ وبعدها سيذهبون إلى كندا. لكنهم لا يحتجزون الفتاتين معًا، فأليس موجودة مع نساء قبيلة الهيرون، وكورا مع مجموعة أخرى، توجد بعد الصخور.»

سأله هوكاي: «ولماذا يسمحون لك بالتجول بحرية؟»

أجابه قائلًا: «إنهم يظنون أنني مجنون، ولا يرون أنني أمثل خطرًا عليهم.»

قال هوكاي: «لقد عثرنا على صافرتك، أظن أنك ترغب في استعادتها.» ثم أخرج الصافرة، فأخذها ديفيد في سعادة.

سأله هوكاي عن معلومات أخرى عن كورا وأليس، فأدق التفاصيل قد تساعدهم في العثور على الفتاتين. لكن ديفيد لم يكن يعلم الكثير. واقترح دانكن طرقًا كثيرة ومختلفة لإنقاذ كورا، لكن هوكاي رأى أنها لن تفلح.

قال هوكاي: «أظن أنه من الأفضل أن يعود ديفيد إلى هؤلاء الناس. يمكنه العثور على كورا وأليس ويخبرهما أننا قادمون إليهما. وعندما يرى أننا نستطيع الوصول إليهما دون التعرض لخطر كبير يمكنه إرسال إشارة إلينا. هل تعلم يا سيدي صوت صياح الطائر الليلي؟»

ابتسم ديفيد وأجاب: «أجل، بالطبع.»

قال هوكاي: «حسنًا، ستكون هذه الإشارة. عندما تسمع هذه الصيحة ثلاث مرات، ستأتي إلى الدغل و...»

قال دانكن: «كفى، سأذهب معه.»

نظر هوكاي إليه وقال: «إذا ذهبت معه فمن المؤكد أنك ستقتل.»

قال دانكن: «يمكنني أن أتظاهر بأنني مجنون أو أحمق وأستحوذ على اهتمامهم. أنا مستعد لفعل أي شيء لإنقاذ أليس وكورا.»